إحسان
تزكية النفس .. وتصحيح المسار

ظاهرة الإحتفال بالمولد النبوي وآثارها

مصر نموذجا

عبد الكريم الحمدان

ظاهرة الاحتفال بالمولد النبوي وآثارها- مصر أنموذجاً

عبد الكريم الحمدان

كيف ؟ لا أدري . لماذا ؟ ربما أنني يوماً عرفت السَبَبَا
عالمٌ يدعو بدعوى جاهلٍ ! ! وليوثُ الحربِ ترجو الأَرْنَبَا ! !

سؤال مبهم في مطلعه، لكنه محير في خاتمته ! ! والإجابة عنه تختلف باختلاف ما يدور السؤال حوله من مبهمات حياتنا التي كثرت، وكل منها يحتاج إلى أسئلة لكنها أحوج إلى إجابات تشفي .

كيف تصبح محبة الرسول -صلى الله عليه وسلم- حيدةً عن دينه وهديه ؟

كيف تصاغرت همم الناس للاشتغال بذكر شمائل رسولهم -صلى الله عليه وسلم- ومآثره في يوم أو بعض يوم من العام، ثم يُتناسى ويُهجر ذكره سائر العام؟!

ولماذا تنفق الأموال وتسير الجموع إلى مثل هذه المواقف؛ والمسلمون في كل أرض يُتخطفون ؟ !

أسئلة تطرح نفسها مع كل موسم يتنادى فيه القوم لاحتفال من احتفالاتهم، والتي من أشهرها : الاحتفال بمولد المصطفى -صلى الله عليه وسلم- الذي أجروه مجرى الواجبات، حتى أصبح من (الشعائر) التي يعزّ عليهم إغفالها أو ترك القيام بها؛ مع تفريطهم في كثير من فروض الأعيان والكفايات فضلاً عن السنن والمستحبات .

إن هناك موالد أخرى كثيرة تولدت عن مسألة الاحتفال بالمولد النبوي، وكلها أصبحت تُعَظَّم، وتُمارَس فيها أمور بدعوى التقرب إلى الله، هذه الموالد في

مصر وحدها أصبحت ستة إلى جانب 22 موسماً آخر؛ بخلاف موالد من يدّعي فيهم الولاية [1] والله أعلم بما كانوا يعملون .

وأصبح تضخيم تلك الاحتفالات وحبك الأساطير حولها ثم إشاعتها بين العوام وأشباههم - ليتلهوا بها - من الوسائل التي يلجأ إليها الحكام لصرف الناس عن الدين الحق؛ فما أن يفرغ الناس من مناسبة حتى يلاحَقوا بغيرها، وهكذا دواليك .

من المعروف أن أول من توسع في الاحتفال بالموالد في مصر هم العبيديون المسمَّوْن ب (الفاطميين) وقد كانت لهم ذرائع ودوافع في إحياء الاحتفال بالموالد، جُلها لا تمت إلى محبة النبي -صلى الله عليه وسلم- بصلة؛ وهي - مع التأمل - الذرائع والدوافع نفسها التي لا تزال وراء الاحتفال بالمولد إلى يومنا هذا .

أسباب النشأة وتفاعلاتها الاجتماعية :

من خلال التتبع الواقعي لتاريخ الاحتفال بالمولد في مصر واستقراء ما يجري فيه من وقائع يمكن أن نجمل الدافع إلى ذلك في عدة أسباب هي :

1 - نشر العقائد الشيعية من خلال التذرع بحب آل البيت والارتباط بهم؛ وهذا ما صنعه العبيديون من قبل ويفعله أحفادهم والمتأثرون بهم في كثير من البلاد .

2 - نيل الشهرة والصيت؛ وهذا يختص بفئة تنفق على هذه الموالد وترعاها من الأغنياء والموسَرين .

3 - كسب الولاء الديني وهو الدافع الذي يدفع (مشايخ الطرق) للتسابق في إقامة السرادقات، والمشي في المسيرات من أجل الاستزادة من الأتباع .

4 - الارتزاق وهو ما يقوم به طائفة عريضة من تجار الحلوى وبائعي (أمور أخرى) ومؤجري الألعاب والملاهي والبائعين الجوالين، بل مشايخ الطرق المنتفعين بما يجري في الأضرحة، والمداحين والقصاصين والمنشدين والمغنين والراقصات ! وأمثالهم .

---

[1] انظر : السنن والمبتدعات للشيخ محمد عبد السلام الشقيري، ص 143، والإبداع في مضار الابتداع للشيخ علي محفوظ، والقول الفصل في حكم الاحتفال بمولد خير الرسل للشيخ إسماعيل الأنصاب، ص 181 .

5 - إتاحة الفرصة أمام الفساق والفجار الذين يسعون وراء الحرام؛ فإذا ما سمعوا بمولد قالوا : هلموا إلى بغيتكم؛ حيث يتسنى لهم فيها قضاء مآربهم .

6 - التعمية على بعض الممارسات المعادية للدين الحق . وقد تطور هذا في العصور المتأخرة إلى وسائل أكثر تعمية كأن تفتتح في الموالد بعض المشاريع الكبرى وتقام المهرجانات الدينية ! من أجل الاحتفال بسيد المرسلين ! -صلى الله عليه وسلم-، وتكون الرسالة التي يراد لها أن تبلغ الجميع أنه ليس أغير على النبي -صلى الله عليه وسلم- ودينه من هؤلاء، ويُقدَّم الرسول -صلى الله عليه وسلم- في أدبياتهم على أنه شخصية تاريخية كان لها أثرها في تاريخ الأمة العربية ! شأنها شأن العظماء، ومع انتهاء الحفل يسدل الستار حتى إشعار آخر .

وأوضح أنموذج لذلك ما ذكره الجبرتي من أن نابليون أمر الشيخ البكري بإقامة الاحتفال بالمولد وأعطاه ثلاثمائة ريال فرنسي، وأمره بتعليق الزينات، بل وحضر الحفل بنفسه من أوله إلى آخره [2] ، ويعلق عبد الرحمن الرافعي قائلاً : فنابليون قد استعمل سياسة الحفلات ليجذب إليه قلوب المصريين من جهة، وليعلن عن نفسه في العالم الإسلامي بأنه صديق الإسلام والمسلمين [3] .

مشاهد من الاحتفال :

تختلف صور الاحتفال تبعاً للفئة المحتفلة وأفكارها وأهدافها، ويمكننا في هذا المقام التفريق بين أربع فئات درجت على الاحتفال بالمولد في العقود الأخيرة:

أولها : الجهات الحكومية وهي التي كانت تمثل رسمياً في هذه الاحتفالات؛ حيث كانت وزارة الأوقاف ترعى الاحتفال السنوي الذي كان يحضره الملك في أيام الملكية، ثم أصبح يحضره الرؤساء في عهد الجمهورية، وفي العادة فإن الملوك والرؤساء يلقون في هذا اليوم خطبة، كما يحضره شيخ الأزهر وعدد من الوزراء والشخصيات العامة، وتوزع فيه جوائز على الفائزين في مسابقة تقام احتفالاً بالمولد النبوي، كما توزع فيه الجوائز التقديرية على بعض الحضور باسم تكريم العلم والعلماء، كما تقام احتفالات في كافة المدن ترعاها فرق من الشرطة .

---

[2] انظر تاريخ الجبرتي : 2/201 - 202، ويعلل الجبرتي اهتمام الفرنسيين بالاحتفال بالموالد عموماً (لما رآه الفرنسيون في هذه الموالد من الخروج عن الشرائع واجتماع النساء واتباع الشهوات والرقص وفعل المحرمات) .

[3] تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم لعبد الرحمن الرافعي، ص 258 - 261 .

وفي وقتنا الحاضر تحتفل إذاعة القرآن الكريم في مصر بالمولد على مدى شهر كامل هو ربيع الأول . ومع أن كثيراً من البرامج لا غبار عليها إلا أن ارتباطها بموسم لم يقره الشرع يبقى نقطة مؤاخذة إضافة إلى بعض البرامج والفقرات التي لا تخلو من غلو في شخصه -صلى الله عليه وسلم- مثل قول المنشد :

ميلاد طه أكرم الأعياد ونذير كل الخير والإسعاد

2- الجهات شبه الرسمية ويمثلها تقليدياً في الاحتفالات المجلس الصوفي الأعلى والطرق التابعة له ووكلاؤه في كل المدن؛ إذ ينص قانون تنظيم الطرق الصوفية الصادر 1976م على اختصاص هذا المجلس بإصدار تصاريح إقامة الموالد ! ومجالس الذكر وسير المواكب والاحتفالات في المواسم والأعياد الدينية [4]، وتقيم المشيخة الصوفية هذا الاحتفال الذي تحضره مواكب الشرطة، ويحضره مندوب رسمي عن رئيس البلاد، وتعزف فيه الموسيقى، وتنطلق المسيرة تحت الرايات طريقة بعد أخرى في موجة من الإنشاد مبتدئة من مسجد الجعفري مشياً على الأقدام بالشوارع لتنتهي إلى المشهد الحسيني الذي يقف الجميع أمامه في خشوع لقراءة الفاتحة للنبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم تُدَبَّج الخطب وتلقى الأناشيد والأشعار . ويبدأ الحفل الشعبي من حيث انتهى الحفل الرسمي الذي تنقله الإذاعة والتلفزيون عادة .

ويدخل كل (شيخ طريقة) خيمته، وتعقد حلقات الذكر أو الشطح والرقص والتدخين والإنشاد والتشبيب إلى جنب المراقص وملاعب القمار وأماكن مشبوهة، واذا ما قدر لامرئ أن يرى أنواع الشر مجتمعة فما أحسب أنه سيجد مكاناً يُجملها مثل هذه المواطن التي تمارس فيها المعاصي على أنها طاعة، والخرافة على أنها حقيقة، والجهل على أنه علم . ويمكنك أن تلمس هذا وأنت تسمع لمنشد يهذي بين أدعياء المحبة فيقول :

سعد السعود علا في الحل والحرم نور الهدى قد بدا في العرب والعجم
بمولد المصطفى أصل الوجود ومن لولاه لم تخرج الأكوان من عدم

ويطلب القوم المزيد فيسمعهم حُلُوليَّات ابن الفارض :

وإني وإن كنت ابن آدم صورة فلي فيه معنى شاهد بأبوتي

---

[4] المادة 12 من الباب الأول من اللائحة التنفيذية، وهذا يعني أن الدولة تعترف رسمياً بسلطة هذا المجلس .

ويستزيدونه حتى يقول :

أنا فيكمو أنا فيكمو ولكني خفي عنكمو

وهنا يتصايح الناس ويسقط بعضهم ويسكر بعضهم ويظل يهذرم بكلام لا يعني إلا الحلول، أو ما يسميه بعضهم بالحضرة الإلهية على اختلافٍ بينهم .

والحق أن الموالد من أخصب البيئات للمناكر الظاهرة والمستترة؛ ففي ساحاتها الواسعة ينتشر الرقعاء دون خجل، ويختلط النساء بالرجال في المأكل والمشرب وغيرها؛ حيث تكثر جرائم الزنا واللواط، ويدخن الحشيش، وتسمع الأغاني الخليعة والموسيقى الصاخبة، وتختفي روح الجد، وتفيض روح الفوضى وعدم النظام، كما تختفي النظافة من المساجد وتضطرب أوقات الصلوات والجماعات، ودعك من أن أكثر الوافدين على هذه الساحات لهم عقائد غريبة؛ فربما ضن أحدهم على أمه بقروش يبرها بها في الوقت الذي يبسط يده بالنفقة هنا ! وبعضهم يعتذر لهذه الموالد بأن فيها حلقات للذكر ودروساً للعلم وتلاوة للقرآن وإطعاماً للفقراء والمساكين، وكل هذه الآثام ينتعش وجودها في هذا الجو الاحتفالي المبتدَع الذي ما أنزل الله به من سلطان، ومع هذا يدعي أهله أنهم يحبون النبي - صلى الله عليه وسلم- ويحيون ذكراه !

ولو خلت الموالد من هذه الآثام التي سقناها آنفاً، لوجب تعطيلها أيضاً؛ لمظاهر التدُّين الفاسد التي تسودها؛ فحلقات الذكر ضروب من الهوس وألوان من الرقص الذي يسودُّ له وجه أهل الدين ! أما القرآن المتلو في هذه الساحات فما ينتفع به قائل ولا سامع؛ إنه ضرب من غناء مملول النغم يتصنع له بعض السامعين من الإقبال ريثما يفرغ منه، وكذلك الوعظ في دروس الوعظ والإرشاد التي تنظمها بعض المؤسسات الدينية لا تكاد تظفر بفائدة هما يراد نشره بين الجماهير المحتشدة في هذه الموالد .

تلك محاولات عابثة وإهدار لقيمة الذكر الحكيم والحديث الشريف .

ولو افترضنا وجود بعض الخير بين الأعمال التي تمارس في المولد فإنها لا تسوِّغ إقامة الموالد بعدما أضحت الشرور المتيقنة التي تكتنفها أكثر بكثير من

تلك الفوائد المظنونة؛ وقانون الشريعة في هذا : أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح (5).

وثالث الفئات المحتفلة بالمولد هم عامة الناس الذين كانوا يمثلون زخماً قوياً لاحتفالات الصوفية حتى وقت قريب، لكن الإقبال قل كثيراً نتيجة عدد من العوامل منها :

1 - الأثر الذي أحدثته الصحوة الإسلامية المباركة وتمثل في توعية الناس؛ فلا شك أن ذلك كان له أثر كبير في محاربة البدع .

2 - ارتفاع نسبة التعليم والتثقيف الذي أدى إلى سقوط كثير من الأوهام والخرافات .

3 - الهجوم العلماني وما يشيعه من سلوكيات مادية - ولا يخفى أن منطلق هجومه عقلاني وليس شرعياً - فهو يحارب الدين بصورة فجة ثم يرفع شعاراً مشوهاً للدين تمثله الموالد ونحوها من أجل إسقاط سلطانه كلياً، ولا شك أنه قد اجتذب قطاعاً من المجتمع لا يستهان به .

4 - كثرة وسائل الترفيه من وسائل إعلام وغيرها مما اجتذب الفئة التي كانت تحتفل بالمولد من أجل الترفيه والترويح؛ فقد وجدت ما يغنيها ويزيد في هذه الوسائل، ومع هذا فيبقى احتفال قطاع عريض من العامة بالمولد محصوراً في شراء حلوى المولد ومشاهدة الاحتفالات في التلفاز، وإن كانت الاحتفالات لا تزال بالمدن التي فيها الأضرحة الكبرى كطنطا ودسوق وقنا وأسيوط .

ورابع هذه الفئات : هي بعض الاتجاهات الإسلامية (6) التي تحتفل بالمولد بإقامة الأمسيات الدينية التي تذكِّر بهديه -صلى الله عليه وسلم- . ولو لم يكن في ذلك غير موافقة المبتدعة أو إثبات شبهة سنية الاحتفال أو شرعيته لدى العوام لكفى بها ضرراً؛ فكيف إذا انضاف إلى ذلك قصرهم للخطب في ذلك اليوم على مولد الرسول -صلى الله عليه وسلم- مما يدعو إلى تعظيم ذلك اليوم على وجه التقرب .

---

(5) الكلام للشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - نقلاً عن (الوثنية في ثوبها الجديد) لسمير شاهين، ص 106 - 107 .

(6) وكأن هذه الفئات ظنت أن ذلك حل وسط بين بدعية هؤلاء وما ظنوه مجافاة لحق صاحب النبوة -صلى الله عليه وسلم-، ولئن سلمنا لهم بالتفريق مع عدم صحته يبقى أن بدعة العادة لا تنطبق على اتخاذ الأعياد لما فيها من التشريع وكونها خصوصية شرعية .

والغريب أن بعضهم يقيس ذلك الاحتفال على احتفال النصارى بعيد الميلاد أو احتفال القوميين برموزهم السياسية ويقولون : النبي -صلى الله عليه وسلم- أولى بالتعظيم . إن من الظلم مساواة النبي -صلى الله عليه وسلم- بهؤلاء، أو الاحتجاج على شرعية ذلك بصنيع هؤلاء وقد أُمِرنا بمخالفتهم .

البعد الاعتقادي للاحتفال بالمولد :

يعتقد قطاع عريض من المتصوفة أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قد خُلِقَ من نور (أي أزلي) ويسمون ذلك بـ (الحقيقة المحمدية) التي سبقت خلق آدم ثم حلت فيه حين خلق، وما زالت تنتقل من آدم إلى من بعده من الأنبياء حتى بلغت شخصه -صلى الله عليه وسلم-، وهي التي يستمد منها جميع الأولياء - عندهم - علمهم وقوتهم وتصرفهم، أو هي التي تنتقل بما يعرف عندهم بـ (القطب الغوث)، وهذا الكلام تلفيق بين اليونانية وفق نظرية الفيض النوراني وبين الخرافات الهندوكية التي تقول بتناسخ الأرواح .

والواقع أن ثمة رابطاً قوياً بين نظرية الحقيقة المحمدية (7) وبين احتفالهم بالمولد هي أن الحقيقة تجسدت في شخص النبي -صلى الله عليه وسلم- في مولده، وهذا ما يهم القوم . أما الشريعة التي جاءت بعد البعث فليست لهم؛ لأن علمهم لدنيٌّ مستمد من هذه الحقيقة .

ولهذا، فهم يقدسون أولياءهم الذين استمدوا من الرسول -صلى الله عليه وسلم- العلم والتصريف، ولأن الرسول -صلى الله عليه وسلم- - كما يعتقدون - حي في قبره، وأن الحقيقة قد انتقلت إلى مَنْ بَعدَه من الأولياء، فلماذا يُحرق عليه وهو لم يمت (8) ؟ ولهذا لا نعجب إذا حدثوا أن الرفاعي (صاحب الطريقة الرفاعية) قد مد له النبي -صلى الله عليه وسلم- يده من القبر فصافحه وأعطاه العهد، أو قالوا قريباً من ذلك عن البدوي أو الدسوقي أو الشاذلي . لكل هذا فهم يقدسون يوم المولد دون غيره .

---

(7) انظر على سبيل المثال الكلام عن الحقيقة المحمدية ونقدها في كتاب (الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة للأستاذ عبد الله عبد الخالق) .

(8) يعتقدون أنه لم يمت لأنه حقيقة نورانية كالملائكة، الله توحيد وليس وحدة، محمد الأنور البلتاجي، ص 432 وما بعدها، التصوف الإسلامي لزكي مبارك، ص 206 - 210، وخطاب مفتوح لشيخ مشايخ الطرق الصوفية لعبد الرحمن الوكيل، ص52 .

وتعجب بعد هذا من مسائل يثيرونها[9] : هل يوم المولد أفضل، أم ليلة القدر ؟ ويُصطنع لها أقوال ينتصر في آخرها لقولهم وهو واه جداً .

ومثال آخر هو قولهم حول وجوب إظهار الفرحة بيوم المولد مثل أيام العيدين .

وتفرع عن هذا مسألة هي : ما حكم صيام يوم المولد ؟

دعوات الإصلاح :

كان لبعض علماء الأزهر وغيرهم جهود مشكورة في توعية هؤلاء المحتفلين بالمولد والإنكار عليهم، وتقدمهم في ذلك رهط من العلماء والمشايخ -رحمهم الله- جميعاً كان من أبرزهم : الشيخ علي محفوظ، والشيخ حسنين مخلوف، والشيخ المراغي، بالإضافة إلى عدد من رجال الدعوة والإصلاح مثل : الشيخ حسن البنا الذي حاول أن يُحَمِّل الأزهر ووزير الأوقاف المسؤولية؛ إذ كان يرى أن التصوف بهذا الشكل قد أضر بالدين على تلك الصورة الدخيلة فأصبح شراً لا يطاق .

ومنهم الشيخ محمد رشيد رضا الذي شدد كثيراً على ممارسات التصوف، لكنه كان يشارك أحياناً في الاحتفال بالمولد بإلقاء الكلمات أو تأليف الرسائل في بيان مكانته -صلى الله عليه وسلم- وواجب الأمة نحوه .

كما ساهمت جماعة أنصار السنة المحمدية بمصر في ذلك من خلال مؤلفات مشائخها : محمد حامد الفقي، وعبد الرحمن الوكيل، وجميل غازي، ومن جاء بعدهم، وعلى صفحات (الهدي النبوي) ومجلة التوحيد .

وكان للجمعية الشرعية كذلك جهود مشكورة وإن لم تكن في مستوى جماعة أنصار السنة، وكان ممن تكلم في بدع الموالد : الشيخ عبد اللطيف مشتهري - رحمه الله - ويضاف إلى هذا جهود الدعوة السلفية التي حملت على عاتقها أيضاً الرسالة نفسها .

وفي السنوات الأخيرة، أثمرت تلك الجهود المباركة أثراً ملموساً في توعية الناس بمضار الابتداع وثمار الاتباع، وهكذا يُقال للدعاة في كل بلد ابتلي

---

[9] انظر هذه المسائل في الكتاب القيم : القول الفصل في حكم الاحتفال بمولد خير الرسل -صلى الله عليه وسلم- .

بالمبتدعة : اجتهدوا في تبصير الناس بالحق، فعلى الحق نور لا تطيقه خفافيش الجهالة والظلام .

{ وقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ ورَسُولُهُ والْمُؤْمِنُونَ وسَتُرَدُّونَ إلَى عَالِمِ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [التوبة : 105] (10).

---

(10) ((مجلة البيان . العدد [139] صـ 76 ربيع الأول 1420 - يوليو 1999))